التقوى

د . محمد توفيق رمضان البوطي

أما بعد فيا أيُّها المسلمون؛ يقول الله جلَّ في كتابه الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ويقول سبحانه: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ويقول سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ ويقول: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ وقال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ ، ويقول جلَّ شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، روى الترمذي والحاكم عن أبي أمامة رضي الله عنه أنَّه قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع يقول: «اتقوا الله ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ذا أمركم- أي ولاة الأمر- تدخلوا جنة ربكم». وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تناجشوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا -ثلاثاً- ويشير إلى صدر، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه».

أيُّها المسلمون؛ التقوى كلمة مشتقة من الوقاية -أي الحفظ- ومدلولها الشرعي في كتاب الله تعالى أن تقي نفسك من أسباب العذاب والمخالفة بأن تطيع أوامر الله تعالى وتجتنب نواهيه، أن تطيعه فيما أمر وأن تجتنب ما نهى، لكي تقي نفسك من شر العذاب يوم القيامة، وحفظ الإنسان نفسه من أسباب الهلاك والعذاب لا يتحقق إلا بفعل الأوامر واجتناب النواهي، وإذا عدنا إلى الآيات الكريمة نجد أنَّ الآية المتوسعة في هذا الموضوع هي التي عبرت بثلاث مفردات عن معنى التقوى، (البرُّ، الصدق،

التقوى)، فقال ربنا تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ﴾ ، إذاً أول ما يستلزمه البرُّ هو أن أكون مؤمنًا، فصفة الإيمان مقترنة بصفة البرِّ، والبرُّ اسم جامع للمحاسن كلِّها، الاسم الجامع لكلِّ أنواع المحاسن هي كلمة البرِّ، أول مستلزمات البرِّ: الإيمان بالله تعالى وبكل ركن من أركان إيماننا، أن نؤمن بالله واليوم الآخر والكتاب والنبيين، الأمر الثاني الذي يستلزمه وصف البر كما وصف ربنا تبارك وتعالى: بذل المال لمستحقيه ﴿وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ﴾ أي مع حبه لماله وحرصه الشديد عليه يبذل هذا المال فيما يرضي الله سبحانه وتعالى، يبذله لمستحقيه؛ ﴿ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾، هذه الصفة الثانية من مستلزمات البر، أمَّا الصفة الثالثة: فهي إقامة الصلاة، إقامة الصلاة أبلغ من الصلاة، الإقامة هنا أن أؤديها على وجهها وأن أواظب عليها، أمران يستلزمهما معنى كلمة (أقام الصلاة): أداؤها على الوجه الأمثل، والمواظبة عليها، ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ﴾ كرر معنى البذل ولكن في ركن من أركان الإسلام ولمستحقيه، قضية الزكاة هي مقرونة بالصلاة دائمًا، ﴿وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾، الأمر الرابع الذي يستلزمه وصف البرِّ: الموفون بعهدهم إذا عاهدوا، الخونة الذين ينقضون العهود ويخلفون المواعيد ويغدرون بمن عاهدوهم، هؤلاء ليسوا من الإيمان في شيء، وليسوا من البرِّ في شيء، وليسوا من التقوى في شيء، هؤلاء الذين ناصبوا الله عزَّ وجل المخالفة والعدوان، هؤلاء أعداء الله وأعداء الإنسان، وأعداء الإيمان وأعداء الاستقامة، الذين يُخلفون المواعيد وينقضون العهود، وما أشبههم اليوم بما مُورس في نبع عين الفيجة، بعد أن وقعوا على اتفاق فيما بينهم وبين الجهة المقابلة، فما كان منهم إلا أن قتلوا الرجل الطيب الذي أراد أن يحقن الدماء ويصلح الحال، ويعيد الأمر إلى نصابه، فما كان منهم-لأنَّهم خَلت قلوبهم عن الإيمان وخلت نفوسهم عن البر، واعتادوا الخيانة والعمالة والأعمال القذرة- ما كان منهم إلا أن يغتالوا هذا الإنسان ويتصيدوا أولئك الذين جندوا أنفسهم لإعادة الأمر إلى نصابه وحقن الدماء وإصلاح الحال، قال: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ﴾ هذه الكلمة كنا قد تحدثنا عنها في الأسبوع الماضي، ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ ، الصابرين على الشدة، الصابرين على المصاعب، الصابرين على أداء الواجبات، الصابرين عن فعل المنكرات، الصابرين على ما ابتلاهم الله عزَّ وجل به، الذين تجدهم نفوسًا ثابتة راسخة القدم في مواجهة المصاعب، ومواجهة الامتحانات والابتلاءات، نفوسٌ صادمةٌ في المواقف،

ثابتةٌ على الحق؛ لا يضرهم أحدٌ، ولا يترددون في اتخاذ الموقف السليم؛ الذي يرضي الله عزَّ وجل مهما كلف ذلك من أثمان، نحن اليوم نحتاج إلى زاد الصبر لنتحمل إيذاء المؤذين، ولكي تثبت أقدامنا في مواجهة محنة صنعها أعداء الوطن، أعداء الدين، أعداء الإسلام، أعداء الإيمان، نحن اليوم بحاجة إلى أن نتسلح بالصبر، والصبر قوةٌ إيجابيةٌ وليس موقفًا سلبيًا، الصبر قوةٌ إيجابيةٌ تدفع بنا إلى الإقدام وإلى الثبات في المواقف، وإلى مواجهة المصاعب بنفوسٍ أبيةٍ ثابتةٍ قويةٍ، تضع خشية الله عزَّ وجل ومحبته ورضوانه نُصْب عينيها ولا تبالي بالثمن الذي تبذله في سبيل ذلك، ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ في ساعات الحرب ولقاء العدو، هذه صفات البر، ثم بين أن هؤلاء الذين تحقق فيهم وصف البر ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ هذا هو الصدق، الصدق أن تكون مؤمنًا، الصدق أن تكون صابرًا، الصدق أن تبذل المال في الوجوه التي أمرك الله عزَّ وجل أن تبذله فيها، الصدق أن تقيم الصلاة على وجهها، الصدق أن تكون وفيا بالعهد لا تكذب ولا تفتري ولا تخون العهد الذي عاهدت عليه، أن تكون وقَّافًا عند العهد الذي التزمت به ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ ، إذاً فالتقوى هي الكلمة الجامعة لكل أنواع الخير في حياة الإنسان المسلم، من إيمان ومن سلوك، من سلوك يفعل ومن سلوك يمسك، من سلوك إيجابي يقدم على فعل ما أمر الله عزَّ وجل به، إلى سلوك يقبض نفسه ويمتنع عن أن يفعل ما نهاه الله عزَّ وجل عنه، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، هذا ما ينبغي أن نتذكره في صفة التقوى.

الأمر الذي يناقض التقوى هو الاعتداء على الآخرين، الاعتداء على دمائهم، الاعتداء على حقوقهم، الاعتداء على أموالهم، الاعتداء على دمائهم، نحن اليوم نعيش فترة عصيبة بسبب العدوان الذي ناصبنا به أعداء الأمة أعداء الإسلام أعداء الدين، والمشكلة الفظيعة في هذا العدوان أنه يرفع راية الإسلام ويحارب الإسلام، أن يدعي أنه يريد أن يبني دولة إسلامية؛ وهو يشوه الإسلام ويحرف أحكامه، هؤلاء الذين يرفعون شعار الإسلام ويحاربون مبادئ الإسلام، يحاربون حقائق الإسلام، يحاربون أخلاق الإسلام، هؤلاء هم أشدُّ خطرًا على الإسلام من الذين ناصبوا الإسلام العداء في أصل أمرهم، هؤلاء يشوهون الإسلام بسلوكهم ويحاربون الإسلام بتصرفاتهم، أولئك الذين ناصبوا الإسلام العداء وهم يدعون الإسلام، لاحِظوا في الحديث النبوي الشريف الذي مر بنا قبل قليل قال ﷺ:"لا تحاسدوا لا تناجشوا"، ما هو النجش؟ أن يعرض ثمنًا آخر يستطيع أن يستجلب به الزبائن إلى نفسه ينافس بذلك صاحبه، وأخاه، كل أنواع التنافس غير الطاهر غير الصحيح غير السليم في معاملة الناس؛ أمر

نهانا الله عزَّ وجل عنه، لأن الإسلام يريد أن تكون القلوب تجاه بعضها صافية، أن تكون المشاعر تجاه بعضها مشاعر محبة لا مشاعر غيرةٍ وحسدٍ وضغينةٍ، "لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا"، القلب الذي يبغض إخوانه المسلمين قلب لا ينطوي على إيمان، والقلب الحاقد على المسلمين قلب ينبغي أن يتأكد صاحبه من وجود الإيمان فيه لأنه خلا عن حقيقة الإيمان، لا يمكن أن يجتمع الحقد والإيمان في قلبٍ واحد، الإيمان يستلزم صفاء السريرة، وطهر المشاعر عن الحقد والحسد والضغينة والكبر ونحو ذلك من الأخلاق الذميمة، كيف يمكن أن يدعي الإنسان الإسلام وهو يضمر العدوان عليك، وهو يريد الشر بك، وهو يحقد عليك ويحسدك ويسيء إليك؟؟ هذا مما يتنافى مع الإسلام، النبي ﷺ يقول : "ولا تباغضوا"، البغضاء تؤدي إلى القطية والتدابر "ولا تدابروا" هذه الأمور محرمة شرعًا نهانا عنها الله عزَّ وجل ونهانا عنها نبيه ﷺ "ولا يبع بعضكم على بيع بعض"، لا ينبغي أن يكون التنافس فيما بيننا دافعًا إلى أن أنافسك في تجارتك، لأنه لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، أما إذا أحب لنفسه ما هو على حساب أخيه فهذا أمر لا ينسجم مع الإيمان والإسلام، قال: "وكونوا عباد الله إخوانا"، حققوا معنى الأخوة فيما بينكم، ترجموا معنى الأخوة فيما بينكم، حولوها إلى حقيقة ماثلة في سلوككم فيما بينكم، الإخْوة الذين آخى بينهم النبي ﷺ عند الهجرة وصفهم الله عزَّ وجل بقوله ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، يؤثر أخاه على نفسه حتى ولو كان هو في حد ذاته فقيرًا قليل ذات اليد، يؤثره على نفسه، الإيثار هو سر النصر، الإيثار هو سر الفرج، الإيثار هو ترجمة المحبة والأخوة، ولعلنا لا ننسى ما جرى في إحدى معارك المسلمين عندما انتهت المعركة وتساقط الجرحى يئنون تحت وطأة جراحهم، جاء الساقي ليسقي الجرحى، فسأل أحدهم ماءً فقال له: تريد الماء؟ قال: نعم، فأتاه بالماء، وإذ بإنسان يسمع كلمة الماء، قال: وأنا أيضًا أريد الماء، قال الأول أعطه لعله أعطش مني، وصل إلى الثاني، سمع ثالثًا يريد الماء، قال أعطه لعله أعطش مني، وصل إليه وإذ به قد فاضت روحه، ورجع إلى أخويه وإذا هم قد استشهدوا، هذه النفوس الطاهرة الطيبة النقية هي التي تصنع النصر، هي التي يمكن أن تحقق المعجزات، أما أصحاب الأنانية والأثر الذين ينون غناهم على فقر الآخرين، ويبنون سعادتهم على شقاء الآخرين؛ فليسوا من الإسلام في شيء، وليسوا من الإيمان في شيء، يجب أن يتحسسوا موضع الإيمان في قلوبهم، فأنا وهم يجب أن نشك في أن الإيمان موجود في قلوبهم، لأن من آمن وثق بالله ومن وثق بالله علم أن الله عزَّ وجل لن يضيعه ولن يشقيه، ولكنه عندما يريد أن يبني سعادته على شقاء الآخرين، فإنه ليس من الإيمان في شيء، وليس من الأخوة في

أداء أدنى حقوقها ومسلتزماتها في شيء، ثم قال: "بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم" نحن اليوم كلنا يرى المسلمون دونه وللأسف- "كل المسلم على المسلم حرام"، هل نحن نستشعر هذا المعنى ؟؟ "دمه"؛ ما مرَّ علينا زمنٌ فيه سفك دماء فيما بيننا كما هو اليوم، ولو أنَّ القتال الذي يجري اليوم كان يجري بيننا وبين اسرائيل؛ لحقق المعجزات، ولكننا أشدُّ عداءً لبعضنا من عدائنا لعدونا، نحن اليوم نقاتل بعضنا على أتفه الأسباب وأحط الغايات وأحقرها، مدعين الإسلام، فتنة جرت في الغوطة، اختلف فريقان على أسباب تافهة؛ لأن رجلين اختصما فرجت بينهما- والأمر سمعتموه ولعل الكثير منكم سمع به وعلم بتفاصيله- فقامت مَقْتَلة بين الفريقين، لم يُقتل فيها الكثير؛ فقط ألف ومئتا رجل!! من أجل نزاع بين شخصين، هذه الجاهلية بأقذر أشكالها، إذا كان المشركون قد حدثت بينهم معركة داحس والغبراء، بين عبس وذبيان من أجل فرسين تسابقا، فهم بجاهليتهم أسمى هدفًا من هؤلاء بإسلامهم، فصيلان كلٌ منهما يدعي الإسلام ويدعي الدفاع عنه، ويدعي أنَّه من جند الله، ولكنهم جميعًا هم من جند الشيطان وأعوانه، الدماء التي سفكت في هذه الفترة فيما بين أنفسهم وفيما بينهم وبين أبناء الوطن؛ لو أنَّ هذه القوة التي بذلت لو أنها بذلت في مواجهة عدو لحققت المعجزات، ولكنَّها للأسف نحن أقوياء على بعضنا ضعفاء في مواجهة عدونا، أين هي التقوى؟ أين هي مخافة الله؟ أين هي أداء حقوق الله عزَّ وجل؟ أين هو أداء حقوق النفس؟ نفسك لها عليك حقوق، أنت تظلمها بهذا السلوك المنحرف، قلبك وجدانك، دينك، إيمانك، كل هذا قد رميناه خلف أظهرنا وبدأنا نقاتل بعضنا كما لا يقاتل العدو عدوه، أهذه هي التقوى!! أهذا هو الإسلام!!

أسألنا الله أن يردنا إلى دينه ردًا جميلًا، وأن يردنا إلى الرشد وأن يلهمنا السداد.

خطبة الجمعة في 20 / 01 / 2017م